



Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

كانت المدينة تُدخن بصمْتٍ تحت الشمس الحارّة، مُتَعَفِنَةً مثلَ آلاف الجثث المنطِرحة التي سقطت في معارك الشوارع. وهبّت من الجنوب الشرقيّ ريحٌ شديدةٌ حارّة، حاملةٌ رائحة الفساد المُنِنّة. وخارج أسوار المدينة، كان الموتُ نفسه مُتربّصًا، في أشخاصٍ تيطس، وهو ابن فسبازيان، وستين ألفَ جنديٍّ من الفيالق العسكريّة مُتأهبين لنهب المدينة المقدّسة.

حتّى قبلما عبر الرُومان واديّ الشوك وعسكروا على جبل الرّيتون، كانت الفِرَق المتناحرة داخل أسوار القدس قد مهّدت السبيلَ لخراب المدينة.

وكان لُصوصُ اليهود الذين هربوا الآن كالجردان أمامَ الفيالق الرّومانيّة قد أغاروا على المدينة حديثًا وقتلوا مواطنيها البارزين، واستولوا على الهيكل المقدّس. وإذ القوا القرعة من أجل الكهّنوت، جعلوا بيت الصلاة سوقَ طُغيان.

في أعقاب اللُصوص، جاء الثوّار والغيورون^١ سريعًا. وبتوجيه من الرُعماء المتنافسين - يوحنا وسمعان وأليعازر - اجتاح الصّخبُ الأحزاب المتناحرة داخل الأسوار الثلاثة. وإذ انتفخ هؤلاء تجبّرًا وتكبّرًا، قطعوا أوصال المدينة قطعًا دامية.

اقتحم أليعازر قلعة أنطونيا، وقتل الجنود الرُومان داخلها، مُنتهكًا السبب وشرائع الله. وهاج الغيورون فقتلوا آلافًا أخرى ممّن حاولوا إرجاع النّظام إلى مدينةٍ مسعورة. وأقيمت محاكمٌ غير شرعيّة، وازدريت قوانينُ البشر وشرائعُ الله إذ سبق إلى القتل مئات من الرجال والنساء الأبرياء. وأحرقت إبان الاضطراب بيوتٌ مملأى حنطة. وسرعان ما حلّت المجاعة في أعقاب ذلك.

عندئذٍ صلّى أتقياء اليهود، في بأسهم، طالبين بلجاجة أن تأتي روما على المدينة العظيمة. فإنّ أولئك اليهود اعتقدوا أنّ المتنازعين داخل المدينة سيُتحدون عندئذٍ - وعندئذٍ فقط - في قصيّةٍ واحدة: التحرّر من روما.

وقد جاء الرومان فعلاً، رافعين راياتهم المقيّمة، وصيحةً حربهم تُجَلجلُ في أنحاء اليهوديّة كلّها. واستولوا على جدارا وبُطباطة وبئر سبع وأريحا وقيصريّة. وقد زحف رجالُ الفيالق

١ الغيورون هم حزبٌ سياسيٌّ متطرّف، كانوا يسعون للإطاحة بالحكم الرومانيّ على اليهود (الناشر).

المُقتَدِرُونَ عَلَى خُطَى الحُجَّاجِ الأَتَقِيَاءِ الَّذِينَ تَوَافَدُوا مِنْ جَمِيعِ أُنْحَاءِ الأُمَّةِ لِلعِبَادَةِ وَالاِحْتِفَالِ بِأَيَّامِ العِيدِ الكَبِيرِ المُقَدَّسَةِ المُوَاقِبَةِ لِعِيدَيِ الفِطِيرِ وَالفِصْحِ . فَإِنَّ عَشْرَاتِ الأَلْفِ مِنَ الأَبْرِيَاءِ تَدْفَقُوا إِلَى دَاخِلِ المَدِينَةِ وَوَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي خِصَمِّ حَرْبٍ أَهْلِيَّةٍ . ثُمَّ أَغْلَقَ الغَيُورُونَ الأبْوَابَ عَلَيْهِمْ فَعَلِقُوا فِي الدَاخِلِ . وَوَصَلَ الرُّومَانُ تَقَدَّمَهُمْ حَتَّى تَرَدَّدَتْ أَصْدَاءُ الدِّمَارِ عِبرَ وَادِي قَدْرُونَ ، وَلا سِيَّما عَلَى أسْوَارِ القُدْسِ . وَأَقَامَ تَيْطُسُ حِصَارًا عَلَى المَدِينَةِ المُقَدَّسَةِ القَدِيمَةِ ، عَاقِدًا عِزْمَهُ عَلَى إِنْهَاءِ الثُّورَةِ اليَهُودِيَّةِ مَرَّةً وَإِلَى الأَبَدِ .

أَخَذَ يوسِيفُوسُ - قَائِدُ يُطْباطَةَ السَاقِطَةِ اليَهُودِيَّةِ الَّذِي أُسِرَهُ الرُومَانُ - يَبْكِي وَيُنَادِي مِنْ عَلَى السُّورِ الأَوَّلِ الَّذِي اسْتَوْلَى عَلَيْهِ جُنُودُ الفِيلَقِ الرُومَانِيِّ . وَبِإِذْنِ مَنْ تَيْطُسُ ، تَوَسَّلَ إِلَى شِعبِهِ كَيْ يَتُوبُوا ، مُنْبَهًا إِيَّاهُمْ أَنَّ اللهَ ضَدُّهُمْ وَأَنَّ النُّبُوءَاتِ بِالهِلاكِ عَلَى وَشَكِّ أَنْ تَحْتَقِقَ . وَالأَقْلَاءُ الَّذِينَ سَمِعُوا لَهُ ، وَاسْتَطَاعُوا الإِفْلَاتِ مِنَ الغَيُورِينَ فِي هُرُوبِهِمْ ، وَصَلُوا إِلَى طَمَّاعِي بِلادِ الشَّامِ ، فَفَتَشَهُمْ هَؤُلاءِ طَلَبًا لِقِطْعِ الذَّهَبِ الَّتِي افْتَرَضُوا أَنَّهُمْ ابْتَلَعُوهَا قَبْلَ مُعَادَرَةِ المَدِينَةِ . أَمَّا الَّذِينَ لَمْ يُبَالُوا بِتَوَسُّلاتِ يوسِيفُوسِ فَقَدِ كَابَدُوا غَضَبَ آلَةِ الحَرْبِ الرُومَانِيَّةِ بِكاملِهِ . وَإِذْ قَطَعَ تَيْطُسُ كُلَّ شَجَرَةٍ فِي نِطاقِ كِيلُومِترَاتٍ ، صَنَعَ مَنجَنِيقَاتٍ وَأَلَاتِ حِصَارٍ أَمْطَرَتِ المَدِينَةَ بِوَابِلٍ مِنَ الرَّماحِ وَالحِجارَةِ ، بَلِ الأَسْرَى أَيْضًا .

وَمِنْ سَاحَةِ الشُّوقِ العُلْيَا حَتَّى العَقْرَةَ السُّفْلَى ، مَرُورًا بِوَادِي الجَبَّانِينَ بَيْنَهُمَا ، بَاتَتِ المَدِينَةُ تَتَلَوَّى وَتَتَمَلَّمُ تَمَرَّدًا .

وَداخِلَ الهَيْكَلِ العَظِيمِ ، ذَوَّبَ القَائِدُ النَّائِبُ يُوحَنَّا أَوانِي الذَّهَبِ المُقَدَّسَةَ لِاسْتِعمالِهِ الشَّخْصِيِّ . وَبَكَى الأَبْرارُ عَلَى المَدِينَةِ المُقَدَّسَةِ ، عَرُوسِ المُلُوكِ ، أُمِّ الأَنْبِياءِ ، مَوطِنِ داوُدَ المَلِكِ الرَّاعِي . فَعَندَما مَرَّ قَها أَبْناؤُها ، انْطَرَحَتْ مَنهوبَةً مَسْلُوبَةً بِلا حَولٍ وَلا قُوَّةٍ ، تَنْتَظِرُ ضَرْبَتَها القَاضِيَةَ مِنْ أَيْدِي الأُمَمِيِّينَ الأَجَنِبِيِّينَ المَقْوتِينَ .

لَقَدْ دَمَّرَتِ الفُوضَى صِهْيُونَ ، وَوَقَفَتْ رُوما مُتَأَهِّبَةً لِتَدْمِيرِ الفُوضَى ... فِي أَيِّ زَمَانٍ ... وَفِي أَيِّ مَكَانٍ .

أَسْنَدَتْ هَدَسَةَ أُمِّها ، وَتَرَقَّرَقَ الدَّمْعُ فِي عَيْنِها وَهِيَ تَرْفَعُ الشَّعْرَ الأَسْوَدَ إِلَى الوِراءِ عَنِ وَجْهِ أُمِّها الهَزِيلِ الشَّاحِبِ . كَانَتْ أُمُّها جَمِيلَةً فِي ما مَضَى . وَتَذَكَّرَتْ هَدَسَةَ كَيْفَ كَانَتْ تُراقِبُ أُمِّها وَهِيَ تُرْخِي شَعْرَها عَلَى ظَهرِها مُتَلالِئًا فِي تَمُوجاتِ كَثِيفَةٍ . إِنَّهُ تَأَجُّ مَجْدِها ، كَمَا كانَ بابا يَقُولُ . وَها هُوَ الآنَ باهتٌ وَخَشِنٌ ، وَخَدَّها المُنُورِدانَ آنذاكَ باِتا أبيضينَ وَغائرينَ . وَقدِ انْتَفَحَ بَطْنُها مِنْ

سوء التغذية، وراح يُستشف من ثوبها الفوقِي الرَّماديّ عن عظام رِجلِها وذراعِها الهزيلة.
رفعت هَدَسَة يدَ أمِّها، وقبَلتْها بحنان، وقد بدت كَمِخْلَبٍ من عَظْم، رَحوٍ وبارد. ”ماما؟“
لا جواب. ونظرتْ هَدَسَة عبر العُرْفَة إلى أختها الصُّغرى لَيْثَة، مُنطَرِحَة على فراشٍ قَشٍّ وَسِخٍ
في الزاوية. لقد كانت نائِمَة - والحمد لله - فَنُسيَ إلى حينٍ عذابهم البطيء وهم خائرون من
شِدَّة الجوع.

رفعتْ هَدَسَة شعرَ أمِّها ثانيةً، والصَّمْت يلفُّها مثل كَفَنٍ حارٍّ، والألمُ في مَعِدتها لا يكاد
يُحتمَل. وكانت أَمْسٍ تمامًا قد بَكَتْ بُكاءً مُرًّا لَمَّا تَمتمَّت أمُّها بكلماتِ شُكْرِ اللهِ من أجل الوجبة
التي استطاع مَرُقَس أن يَجلبَها لهم: جِلْدِ تُرسٍ من جُنديٍّ رومانيٍّ مَيّت.

كم سيمضي من الوقت قبل أن يموتوا جميعاً؟

وبينما هي مُكْتَبَة في ظلِّ الصَّمْت، تسنّى لها بعدُ سَماعُ أبيها مُتكلِّمًا إليها بذلك
الصَّوت الحازم، لكن الرقيق: ”ليس في وَسع البشر أن يتجنَّبوا المَصير، حتّى لو رأوه سَلَفًا.“
كان حنايًّا قد تفوّه بهذه الكلمات قبل أسابيع قليلة، مع أنّ الزَّمن المُنقضي بدا الآن كأنّه
دَهر. وكان قد قضى ذلك الصباح كُلّه مُصَلِّيًّا، وهي كانت شديدة الخوف. لقد علمتْ أنّه سيفعلُ
ما دأب في فعله قبلاً: أنّه سيَقصد إلى غير المؤمنين ويكرِّزُ لهم بالسَيِّد المسيح، يسوع الناصريّ.
”لماذا ينبغي أن تتلقّى من جديدٍ وتتكلم إلى هؤلاء الناس؟ كدتِ تُقتلِ آخرَ مرّة!“
”هؤلاء الناس، هَدَسَة؟ إنَّهم بنو شعبك.“ ما زال في وَسعها أن تحسّ لمسّته الرقيقة
على خدِّها. ”علينا أن نعتنم كلَّ فرصةٍ للتكلّم بالحقِّ والمُناداة بالسَّلام، ولا سيَّما الآن.
بقي وقتٌ قصيرٌ جدًّا لكثيرين جدًّا.“

أنداك تشبَّت به. ”رجاءً، لا تذهب. أبي، أنت تعرفُ ما سيحدث. ماذا سنفعل من
دونك؟ إنَّك لا تستطيع إحلالَ السَّلام. لا سلامَ في هذا المكان!“

”لستُ أتكلّم عن سلام العالم، يا هَدَسَة، بل عن سلام الله. أنتِ تعرفين هذا.“
ثمَّ أضافَ بعدما ضمَّها بشدَّة: ”سكوتًا، يا بُنيّتي. لا تبكي هكذا.“
رفضتْ أن تدعّه يذهب. فهي تعلمُ أنّهم لن يستمعوا إليه - أنّهم لم يريدوا أصلًا أن
يسمعوا ما يريدُ إخبارهم به. إنّ رجالَ سَمعان سيَتطَّعونهُ إزبًا إزبًا أمامَ الجُمهور، ليكونَ عبرةً
لكلِّ مَنْ يُناصرون السَّلام. فهكذا فعلوا بأخريين.

غير أنّهُ مسَّ ذقنَها برفقٍ، فيما يدها صُلبتان وعيناها فائضتان حنانًا، وقال: ”يجب أن

أذهب. مهما حدث لي، فالربُّ دائماً معكم“. وبعدما قَبَلَهَا وعانَقَهَا، أبعَدَهَا عنه لِيُعَانِقَ وَلَدَيْهِ الأخرين ويُقَبِّلَهُمَا، وأضاف قائلاً: ”مرقس، ستبقى هنا مع أمك وأختيك“.

ثمَّ أمسكتْ هَدَسَةَ بأمِّهَا وهزَّتْهَا قائلةً بِتوسُّلٍ: ”لا يمكن أن تدعيه يذهب! ليس هذه المرَّة!“

”اسْكُتِي يا هَدَسَةَ. مَنْ تخدمين بمُعارضة أبيك هكذا؟“

جاء توبيخٌ والدتها، مع أنَّها تفوَّهَتْ به برفق، شديدَ الوقع على مسمع هَدَسَةَ. وكانت قد قالَتْ مراراً كثيرة من قَبْلُ إنَّه حين لا يخدمُ المرءُ الله، فهو بالأحرى يخدمُ الشرَّير من دون أن يدري. فغالبتْ هَدَسَةَ الدُّموع، وأطاعت، ولم تزد كلمةً واحدة.

لقد وضعت رِفقة يَدَهَا على وجه زَوْجها ذي اللِّحية الشائبة. كانت تعلمُ أنَّ هَدَسَةَ على حقٍّ: فربَّما لا يرجع؛ والأرجحُ أنَّه لن يرجع. ولكنْ إذا كانت تلك مشيئة الله، فلعلَّ شخصاً واحداً يخلُّص من جرَّاء تضحيتِهِ. وقد يكونُ شخصٌ واحدٌ كافياً. اغرورقت عينها، ولم تستطع - بل لم تجرؤ - أن تتكلَّم. فإنَّها لو فعلت ذلك، لربَّما انضمتْ إلى هَدَسَةَ في التوسُّلِ إليه أن يبقى آمنًا في ذلك البيت الصَّغير. ولكنَّ حنانياً كان يعلمُ أفضلَ منها ماذا كانت مشيئة الله له. وهو قد وضعَ يده فوق يَدِهَا، فحاولتْ ألا تبكي، ثمَّ قال بوقار:

”تذكِّري الرَّبَّ، يا رِفقة. نحنُ جميعنا معاً فيه“.

ولم يرجع.

انحنتْ هَدَسَةَ فوق أمِّها بُغيَّةَ حمايتِهَا، وهي تخشى أن تفقدَها أيضاً. ”أمَّاه؟“ ولا جوابَ بعد. كان تنفُّسها بطيئاً، ولونها شاحباً. ماذا كان يؤخِّر مرقس طويلاً؟ لقد مضى منذ الفجر. يقيناً أنَّ الله لن يأخذه أيضاً...

في سكون الغرفة الصغيرة، تعاطمَ خوفُ هَدَسَةَ. وأخذتْ ترفعُ شعرَ أمِّها إلى الوراء شاردةً الذَّهن. رجاءٌ ياربُّ، رجاءٌ! لم تكنْ الكلماتُ لِثأني - على الأقلِّ كلمةً واحدةً ذاتُ معنى مُفيد - بل مُجرَّدُ أنينٍ صاعدٍ من أعماقِ نفسها. رجاءٌ، ماذا؟ أن يُميتهم الآن جوعاً قبل أن يجيءَ الرُّومانُ بسبيوفهم أو يُكابدوا عذابَ الصَّليبِ حتَّى الموت؟ أه، يا الله، أه! ثمَّ جاء دُعاؤها، يائساً وغيرَ مُحدِّدٍ، ملؤه الخوفُ والعجز: ساعدنا!

لماذا جاءوا أصلاً إلى هذه المدينة؟ لقد كرهتْ مدينةَ القدس.

كافحتْ هَدَسَةَ اليأسَ داخلَ كيانها. وكان قد باتَ ثقيلاً جداً، حتَّى شعرتْ به كما لو

كان حِمْلًا مَادِيًا ثَقِيلًا يَشُدُّهَا إِلَى قَعْرِ هُوَّةٍ مُظْلِمَةٍ. وَحَاوَلَتْ أَنْ تَفَكِّرَ فِي أَوْقَاتٍ أَفْضَلَ، فِي لِحْظَاتٍ أَسْعَدَ، إِلَّا أَنَّ تِلْكَ الْأَفْكَارَ أَبَتْ أَنْ تُوَفِّيَهَا.

ثُمَّ فَكَّرْتُ فِي الشُّهُورِ الْمَاضِيَةِ الْبَعِيدَةِ، حِينَ سَافَرُوا مِنَ الْجَلِيلِ، غَيْرَ مُتَوَقِّعِينَ قِطْعًا أَنْ يَعلَقُوا فِي الْمَدِينَةِ. فَعَشِيَّةَ دُخُولِهِمْ إِلَى الْقُدْسِ، نَصَبَ أَبُوهَا خِيْمَةً عَلَى مُنْحَدَرِ جَبَلِي يُرَى مِنْه جَبَلُ الْمُرْيَا، حَيْثُ كَادَ إِبْرَاهِيمُ يُقَدِّمُ إِسْحَاقَ ذَبِيحَةً. وَحَكَى لَهُمْ قِصَصًا عَنْ صِغَرِهِ، إِذْ كَانَ وَلَدًا يَسْكُنُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ تَمَامًا، مُتَحَدِّثًا إِلَى سَاعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنَ اللَّيْلِ بِشَأْنِ شَرِيعَةِ مُوسَى الَّتِي تَرَبَّى تَحْتَ أَحْكَامِهَا. وَتَحَدَّثَ بِشَأْنِ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا تَحَدَّثَ بِشَأْنِ يَسُوعَ، الْمَسِيحِ الْمُخْلِصِ.

تِلْكَ اللَّيْلَةَ، نَامَتْ هَدَسَةٌ وَحَلَمَتْ بِالرَّبِّ يَسُوعَ مُشْبِعًا الْأَلْفَ الْخَمْسَةَ عَلَى مُنْحَدَرِ جَبَلِي. تَذَكَّرْتُ أَنَّ أَبَاهَا أَيْقَظَ الْعَائِلَةَ عِنْدَ الْفَجْرِ. وَتَذَكَّرْتُ كَيْفَ أَنَّ الثُّورَ، عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، انْعَكَسَ عَلَى رُخَامِ الْهَيْكَلِ وَذَهَبِهِ، مُحوِّلًا الْبِنَاءَ إِلَى مَنَارَةٍ مُتَلَالِئَةٍ بِالْبَهَاءِ الْمُتَوَهِّجِ يُمْكِنُ أَنْ تُرَى مِنْ بَعْدِ أَمْيَالٍ. وَمَا زَالَتْ هَدَسَةٌ قَادِرَةٌ أَنْ تَشْعُرَ بِالرَّهْبَةِ الَّتِي خَالَجَتْهَا حَيَالَ ذَلِكَ الْمَنْظَرِ الْمَجِيدِ. "أُوهُ يَا أَبِي، مَا أُرَوِّعُ هَذَا!"

أَنْذَاكَ قَالَ أَبُوهَا بِرْزَانَةَ: "نَعَمْ، وَلَكِنْ مَا أَغْلَبَ مَا تَكُونُ الْأَشْيَاءُ ذَاتُ الرُّوعَةِ الْعَظِيمَةِ مَلَائَةً بِالْفَسَادِ الْفَظِيعِ!"

وَرُغِمَ الْإِضْطِهَادِ وَالْخَطَرَ اللَّذِينَ تَرَبَّصًا بِهِمْ فِي أُورُشَلِيمَ، كَانَ أَبُوهَا مُفْعَمًا بِالْفَرَحِ وَالرَّجَاءِ لَدَى دُخُولِهِمُ الْأَبْوَابِ. عَسَى هَذِهِ الْمَرَّةَ أَنْ يَسْتَمَعَ مَزِيدٌ مِنْ بَنِي قَوْمِهِ، وَأَنْ يُسَلِّمَ مَزِيدٌ مِنْهُمْ قُلُوبَهُمْ لِلرَّبِّ الَّذِي قَامَ مِنْ بَيْنِ الْأَمْوَاتِ.

بَقِيَ فِي مَدِينَةِ الْقُدْسِ قَلِيلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، أَتْبَاعَ الطَّرِيقِ، وَقَدْ سَجِنَ كَثِيرُونَ، وَرُجِمَ بَعْضٌ بِالْحِجَارَةِ، وَطُرِدَ عَدَدٌ أَكْبَرَ بَعْدَ إِلَى أَمَاكِنَ أُخْرَى بَعِيدَةٍ. فَلِعَازَرُ وَأَخْتَاهُ وَمَرِيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ طُرِدُوا خَارِجًا؛ وَالرَّسُولُ يُوْحَنَّا- صَدِيقُ الْعَائِلَةِ الْعَزِيزِ- غَادَرَ أُورُشَلِيمَ قَبْلَ سِنَتَيْنِ، أَخِذًا مَعَهُ أُمَّ الرَّبِّ. وَلَكِنَّ وَالِدَ هَدَسَةَ بَقِيَ. وَمَرَّةً كُلَّ سَنَةٍ، كَانَ يَرْجِعُ إِلَى الْمَدِينَةِ بِصُحْبَةِ عَائِلَتِهِ لِيَجْتَمِعُوا مَعَ مُؤْمِنِينَ أُخْرِينَ فِي عُرْفَةٍ عُلوِيَّةٍ. هُنَالِكَ اشْتَرَكُوا فِي الْخُبْزِ وَالنَّبِيذِ، تَمَامًا كَمَا فَعَلَ رَبُّهُمْ يَسُوعُ عَشِيَّةَ صَلْبِهِ. وَهَذِهِ السَّنَةَ، قَدَّمَ شِمْعُونُ بِنَ أَدُونِيَّا عُنَاصِرَ حَمَلِ الْفِصْحِ:

"إِنَّ الْحَمَلَ وَالْخُبْزَ الْفَطِيرَ وَالْأَعْشَابَ الْمُرَّةَ، الْخَاصَّةَ جَمِيعًا بِالْفِصْحِ، لَهَا عِنْدَنَا مَعْنَى مُمَاتِلٌ لِلَّذِي عِنْدَ إِخْوَتِنَا وَأَخَوَاتِنَا الْيَهُودِ. فَالرَّبُّ يُنَمِّمُ كُلَّ عُنْصُرٍ. إِنَّهُ هُوَ حَمَلُ اللَّهِ الْكَامِلُ الَّذِي حَمَلَ مَرَارَةَ خَطَايَانَا، مَعَ كَوْنِهِ هُوَ نَفْسُهُ بِلاَ خَطِيئَةٍ. وَكَمَا طُلِبَ مِنَ الْعِبْرَانِيِّينَ الْمَأْسُورِينَ فِي مِصْرَ أَنْ يَضْعُوا دَمَ حَمَلٍ عَلَى أَبْوَابِهِمْ حَتَّى يَجْتَازَ عَنْهُمْ غَضَبُ اللَّهِ وَدِينُونَتُهُ، كَذَلِكَ تَمَامًا

سَفَكَ السَّيِّدَ الْمَسِيحُ دَمَهُ مِنْ أَجْلِنَا حَتَّى نَمْتَلَّ أَمَامَ اللَّهِ بِإِذْنِهِ فِي يَوْمِ الْحِسَابِ الْآتِي. إِنَّا أَبْنَاءُ إِبْرَاهِيمَ وَبِنَاتُهُ؛ لِأَنَّ بِيَامِنَا بِالرَّبِّ يَسُوعَ مُخْلِصُونَ نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ...“

كانوا يقضون الأيام الثلاثة التالية صائمين ومُصلِّين ومُكرِّرين تعاليم السيِّد المسيح، وفي اليوم الثالث يُرْمَون ويبتهجون ويكسرون الخبز مرَّةً أُخرى مُحْتَفِلِينَ بِقِيَامَةِ الرَّبِّ. وكلَّ سنة، في أثناء الساعة الأخيرة من الاجتماع، كان أبو هَدَسَةَ يحكي قصَّته الشخصية. ولم تكن هذه السنة مُختلفةً عن سواها. كان الأكَثَرُونَ قد سمعوا قصَّته مرارًا كثيرة من قبل، ولكن كان بين الحُضُور دائمًا مَنْ اهتَدَوْا إِلَى الْإِيمَانِ حَدِيثًا. فإِلى هَؤُلاءِ تَكَلَّمَ أَبُوها.

وقفَ ذلك الرَّجُلُ البَسِيطُ ذُو الشَّعْرِ واللَّحْيَةِ الْأَشْبَبِينَ، والعَيْنِينَ السَّوَادِيْنَ الْمُفْعَمَتَيْنِ نُورًا وَوَقَارًا، وليس فيه ما هو فائقٌ أو استثنائيٌّ. حَتَّى إِنَّهُ، فِي كَلَامِهِ، كان عَادِيًّا. إِنَّمَا لَمَسَهُ اللَّهُ هِيَ الَّتِي جَعَلَتْهُ مُخْتَلِفًا عَنِ الْآخَرِينَ.

بِاشْرَافِ كَلَامِهِ بِهَدْوٍ، نَاطِرًا إِلَى عَيُونِ الْقَاعِدِينَ حَوَالِيهِ: ”كان أبي رجلاً صالحاً من سبط بنيامين، أحبَّ الله وعلمني شريعة موسى. كان تاجرًا بقرب مدينة القدس، وتزوج بوالدتي التي كانت ابنة فلاح فقير. لم نكن أغنياء، ولا كنا فقراء. ومن أجل كل ما كان لدينا، أعطى والدي المجد والشكر لله.“

”عند إقبال الفصح، كنا نُقْفِلُ دُكَّانَنَا الصَّغِيرَ، وَنَدْخُلُ الْمَدِينَةَ، حَيْثُ تُقِيمُ وَالِدَتِي عِنْدَ الْأَصْدِقَاءِ وَتُعِدُّ عِدَّةَ الْفِصْحِ، فِيمَا نَقْضِي أَنَا وَوَالِدِي وَقَتَنَا فِي الْهَيْكَلِ. وَقَدْ كَانَ سَمَاعِي كَلِمَةَ اللَّهِ أَحْسَنَ مِنْ أَكْلِ اللَّحْمِ، وَحَلَمْتُ بِأَنْ أَصِيرَ أَحَدَ الْكُتَّابَةِ الدِّينِيِّينَ. غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَتَحَقَّقْ. فَلَمَّا كُنْتُ فِي الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ، تُوِّفِيَ وَالِدِي؛ وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لِي إِخْوَةٌ أَوْ أَخَوَاتٌ، اضْطُرَرْتُ إِلَى تَسَلُّمِ مَصْلَحَتِهِ. كَانَتْ الْيَّامُ عَسِيرَةً جَدًّا، وَكُنْتُ صَغِيرًا وَعَدِيمَ الْخَبْرَةِ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ صَالِحٌ. فَهُوَ دَبَّرَ الْأَحْوَالَ.“

إِذْ ذَاكَ أَعْغَضَ عَيْنِيهِ، وَأَصَافُ: ”ثُمَّ انْتَابَتْنِي حُمَّى، وَصَارَعْتُ الْمَوْتَ. وَكَانَ فِي وُسْعِي أَنْ أَسْمَعَ أُمَّي وَهِيَ تَبْكِي وَتَصْرُخُ إِلَى اللَّهِ، فَصَلَّيْتُ: رَبِّاهُ، لَا تَدْعُنِي أَمُوتَ. أُمَّي تَحْتَاجُ إِلَيَّ. إِنَّهَا مِنْ دُونِي وَحِيدَةٌ، لَا أَحَدًا يُعِيلُهَا. رَجَاءً، لَا تَأْخُذْنِي الْآنَ! وَلَكِنْ جَاءَ الْمَوْتُ. وَقَدْ أَحَاطَ بِي مِثْلُ ظُلْمَةٍ بَارِدَةٍ وَتَشَبَّثَ بِي.“

سَادَ الْعُرْفَةُ سَكُوتٌ يَكَادُ يُلْمَسُ فِيمَا السَّامِعُونَ يَنْتَظِرُونَ الْخَاتِمَةَ.

مَهْمَا كَانَ عِدَدُ الْمَرَّاتِ الَّتِي فِيهَا سَمِعْتُ هَذِهِ الْقِصَّةَ، فَهِيَ لَمْ تَمَلَّ مِنْهَا وَلَا فَقدَتْ تَأثيرها. وَبَيْنَمَا أَبُوها يَتَكَلَّمُ، كان فِي وُسْعِهَا أَنْ تَلْمِسَ الْقُوَّةَ الْقَائِمَةَ وَالْمُوحِشَةَ الَّتِي اسْتَوْلَتْ

عليه مرّة. وإذ سرت فيها فُشعريرةً باردة، طوّقت ساقَيْها بذراعيها وضمتّهما إلى صدرها، فيما مضى أبوها يقول:

”قالت أمي إن الأصدقاء كانوا يحملونني في الطريق إلى قبري إذ مرّ يسوع. وقد سمعها الربّ تبكي، ففتحنّ عليها. لم تعرف أمي من هو عندما أوقف موكب الجنائز، ولكن كان معه كثيرون من الأتباع، فضلاً عن المرضى والعرج. ثمّ عرفته، لأنّه لمسني فقمّت حيّاً.“

أرادت هَدَسَة أن تفزّ وتتهنّف فرحاً. وبكى بعض من الذين حوَّالَيْها، وقد سلَّت وجوههم عجباً ورهبة. وأراد آخرون أن يلمسوا أباهَا، أن يضعوا أيديهم على رَجُل رَدَّ يسوع المسيح الحياة إليه. وكانت لديهم أسئلة كثيرة جداً. مِمَّ شعرت لما قمّت؟ هل تكلمت معه؟ ماذا قال لك؟ كيف كان منظره؟

في تلك العُلَيَّة، مع المؤمنين المُجمِعين، كانت هَدَسَة تشعر بالأمان. وكانت تشعر بالقوَّة. في ذلك المكان، تسنى لها أن تلمس حضور الله ومحبّته. ”لمسني فقمّت حيّاً“. إنَّ قدرة الله تستطيع أن تقهر أيّ شيء.

ثمّ كانوا يُغادرون العُلَيَّة، وحينما يسير أبو هَدَسَة مع العائلة، عائدين إلى البيت الصغير الذي ينزلون فيه، يثور خوف هَدَسَة الدائم من جديد. وقد صلّت دائماً طالبةً ألاّ يقف أبوها ويتكلّم. فمتى حكى قصّته للمؤمنين، بكوا وابتهجوا. أمّا عند غير المؤمنين، فقد كان محطّ استهزاء. وكان الفرح والأمان اللذان تشعر بهما بمعيّة أولئك الذين يتشاركون معها في الإيمان يتبددان متى شاهدت أباهَا يقف أمام جمهورٍ لُيعاني إهاناتهم الجارحة.

كان يُنادي مُجتذباً الناس إليه: ”استمعوا إليّ، يا رجال يهوذا! استمعوا إلى البشارة التي سأبشركم بها“.

وكانوا يستمعون أوّل الأمر. فهو رجلٌ كبير السنّ، وهم فضوليّون. ولطالما كان الأنبياء حالة استثنائية. إنّه لم يكن فصيحاً مثل القادة الدينيين، بل تكلم ببساطة من قلبه. ودائماً ضحك الناس عليه وسخروا منه. ورشقّه بعضهم بالخُصْر والفواكه الفاسدة، كما نعتّه بعضهم بالجنون، فيما استشاط آخرون ساخطين إزاء قصّة قيامته، وصرخوا بأنّه كذاب ومُجذّف.

وقبل سنتين، تعرّض للضرب الشديد حتّى اضطرّ صديقان إلى إعادته مَحْمولاً إلى البيت الصغير المُستأجر الذي كانوا ينزلون فيه دائماً. وحاولَ ألقانه وبنياً أن يُحاجّاه، فقال ألقانه:

”يا حنانياً، عليك ألاّ ترجع إلى هنا. فالكهنة يعرفون من أنت ويريدون إخراسك. ليسوا على درجة من الغباوة تجعلهم يُقيمون مُحاكمَة، ولكنّ هنالك أشراً كثيرين

يُنْفَذُونَ مَشِيئَةَ سِوَاهُمْ لِقَاءَ شَاقِلٍ . انْفُضْ غُبَارُ أُورُشَلِيمَ عَنْ حِذَائِكَ ، وَاذْهَبْ إِلَى مَكَانٍ مَا حَتَّى تُسْمَعَ الرَّسَالَةَ“ .

”وَفِي أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِلَّا هُنَا حَيْثُ مَاتَ رَبُّنَا وَقَامَ؟“

وَقَالَ بِنَايَا: ”كَثِيرُونَ مِمَّنْ شَهِدُوا قِيَامَتَهُ قَدِ فَرُّوا مِنَ السِّجْنِ وَالْمَوْتِ بِأَيْدِي الْفَرِيسِيِّينَ . حَتَّى لِعَازَرَ غَادَرَ الْيَهُودِيَّةَ“ .

”أَيْنَ ذَهَبَ؟“

”قِيلَ لِي إِنَّهُ أَخَذَ أُخْتَيْهِ وَمَرِيَمَ الْمَجْدَلِيَّةَ إِلَى بِلَادِ الْغَالِ؟“

”لَا يُمْكِنُ أَنْ أُغَادَرَ الْيَهُودِيَّةَ . فَمَهْمَا حَصَلَ ، هُنَا يُرِيدُ لِي اللَّهُ أَنْ أَكُونَ“ .

خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى بِنَايَا لِحِظَةٍ طَوِيلَةٍ ، ثُمَّ نَكَّسَ رَأْسَهُ بِيَطَاءٍ ، قَائِلًا: ”إِذَا ، فَلْتَكُنْ مَشِيئَةَ اللَّهِ“ .

وَكَانَ الْقَانَةَ قَدْ أَدْعَنَ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى يَدِ الْوَالِدِ هَدَسَةَ . ”إِنَّ سَلَمُوثَ وَقُورُشَ بَاقِيَانِ هُنَا . وَهُمَا سَيُسَاعِدَانِكَ عِنْدَمَا تَكُونُ فِي الْقُدُسِ . أَمَّا أَنَا فَسَأَمْضِي بِعَائِلَتِي بَعِيدًا عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ . وَبِنَايَا ذَاهِبٌ مَعِي . وَلْيُضِئْ عَلَيْكَ وَجْهُ اللَّهِ ، يَا حَنَانِيَا . سَنُصَلِّي دَائِمًا لِأَجْلِكَ وَلِأَجْلِ رِفْقَةٍ ، وَلِأَجْلِ أَوْلَادِكُمَا أَيْضًا“ .

بَكَتْ هَدَسَةُ ، وَتَبَدَّدَتْ أَمَالُهَا بِمِغَادَرَةِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْبَائِسَةِ . كَانَ إِيمَانُهَا ضَعِيفًا . فَأَبُوهَا دَائِمًا غَفَرَ لِعُدْبِيهِ وَمُهَاجِمِيهِ ، فِيمَا صَلَّتْ هِيَ طَالِبَةً أَنْ يُكَابِدُوا كُلَّ نِيرَانِ جَهَنَّمَ جِزَاءَ مَا فَعَلُوهُ بِهِ . وَكَثِيرًا مَا صَلَّتْ كَيْ يُعَيِّرَ اللَّهُ مَشِيئَتَهُ وَيُرْسِلَ أَبَاهَا إِلَى مَكَانٍ غَيْرِ أُورُشَلِيمَ - مَكَانٍ مَا صَغِيرٍ وَأَمِنٍ ، حَيْثُ يَرِغِبُ النَّاسُ فِي سَمَاعِهِ .

وَكَمَ قَالَتْ لَهَا وَالِدَتُهَا ، مُحَاوِلَةً أَنْ تُعْزِيَهَا: ”هَدَسَةُ ، نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يَحِبُّونَهُ ، أَوْلَيْكَ الْمَدْعُوبِينَ حَسَبَ قِصْدِهِ“ .

”أَيُّ خَيْرٍ فِي التَّعَرُّضِ لِلضَّرْبِ؟ أَيُّ خَيْرٍ فِي تَلْقِيِ الْبَصْتِ؟ لِمَاذَا يَنْبَغِي أَنْ نَتَأَلَّمَ هَكَذَا؟“

فِي تَلَالِ الْجَلِيلِ الْأَمِنَةِ ، وَالْبَحْرِ الْأَزْرَقِ مُنْبَسِطُ أَمَامِ هَدَسَةَ وَزَنَابِقُ الْحَقْلِ وَرَاءَ ظَهْرِهَا ، كَانَتْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَوْمَنَ بِمِجْبَةِ اللَّهِ . وَفِي بَلَدِهَا عِنْدَ تَلَالِ التَّلَالِ ، كَانَ إِيمَانُهَا قَوِيًّا ، وَقَدْ جَعَلَهَا تَشْعُرُ بِالذَّفءِ وَجَعَلَ قَلْبُهَا يَتَرَمَّمُ .

٢ بلادُ الغالِ حَالِيًا هِيَ فَرَنْسَا (النَّاشِرُ) .

ولكن في أورشليم أيضاً جاهدت. لقد تشبّثت بإيمانها، ولكنها وجدته مُنفلتاً منها. فكان الشك رفيفها، والخوف عارماً كاسحاً.

”أبي، لماذا لا يسعنا أن نؤمن ونبقى صامتين؟“

”نحن مدعوون لتكون نور العالم.“

”إنهم يزدادون بُغضاً لنا سنةً بعد سنة.“

”البُغض هو العدو، يا هُدسة، لا الناس.“

”الناس هم الذين يضربونك، يا أبي. ألم يقل لنا الربُّ نفسه إنّه يجبُ ألا نطرح الدرر أمام الخنازير؟“

”هُدسة، إذا كان لي أن أموتَ من أجله، فسأموتُ بفرح. إنَّ ما أفعله هو لأجل قصده الصالح. فالحقُّ لا ينطقُ ثمَّ يعودُ فارغاً. يجبُ أن يكونَ لكِ إيمانٌ، يا هُدسة. تذكرِي الوعد. نحنُ جزءٌ من جسد السيّد المسيح، وفي المسيح لنا حياةٌ أبديةٌ. لا شيءٌ يقدرُ أن يفصلنا. لا قوّة على الأرض. ولا حتّى الموت.“

وإذ ضغطت بوجهها على صدره، والعباءة الخشنة النسيج تكادُ تخدشُ جلدها، سألت:
”لماذا، يا أبي، أقدرُ أن أومنَ وأنا في بلدتنا، أمّا هنا فلا؟“

فوضَعَ يده على يدها، وقال: ”لأنَّ العدوَّ يعرفُ أين تكونين أكثرَ تعرّضاً للهزيمة. هل تذكرين قصّة يهوشافاط؟ لقد هجمَ عليه بنو موآب وعمّون وجبل سَعير بجيشٍ جبار. فحلَّ روحُ الربِّ على يَحزئيل، وقال اللهُ بواسطته: «لَا تَخَافُوا وَلَا تَرْتَاغُوا بِسَبَبِ هَذَا الْجُمْهُورِ الْكَثِيرِ، لِأَنَّ الْحَرْبَ لَيْسَتْ لَكُمْ بَلْ لِلَّهِ». وبينما رنّموا وسبّحوا الربَّ، أقام الربُّ نفسه أكمنّةً على أعدائهم. وفي الصباح، لما جاء أهلُ يهوذا إلى المرقب في البريّة، شاهدوا جثثَ القتلى. ولم ينجُ أحدٌ من المهاجمين. فالشعبُ لم يرفعوا حتّى يدًا في المعركة، وقد تحقّق الفوز فيها.“

ثمَّ قَبِلَ رأسها وقال: ”اثبتِي في الربِّ، يا هُدسة. اثبتِي، ودَعِيهِ يُحَارِبُ حروبك. لا تحاولِي أن تحاربي وحديك.“

تنهّدت هُدسة، مُحاولّةً أن تتجاهلَ الحُرقةَ في معدتها. كم تفتقدُ نصحَ أبيها في وحشة هذا البيت الصامتة. لو صدقتُ كلَّ ما علّمها إيّاه، لابتهجتُ بكونه الآن عند الربِّ. غير أنّها تألمت من الحزن الذي تدفّقَ وغمرها موجةً بعد موجة، ناشراً معه غضباً غريباً مرتبكاً.

لماذا وجبَ أن يكون أبوها مُختلاً هكذا لأجل السيّد المسيح؟ إنَّ الشعبَ لم يريدوا أن

يسمعوا، وهم لم يؤمنوا. وقد أغازتهم شهادة أبيها، وجعلتهم كلماته يُجنُّون حِقْدًا. لماذا لم يستطع، مرَّةً واحدةً فقط، أن يبقى صامتًا ويظلَّ داخلَ الحدود الآمنة لهذا البيت الصغير؟ إذًا لكانَ بقِيَ على قيد الحياة، هنا في هذه الغرفة، مُعزِّيًا إياهم ومُعطيًا إياهم رجاءً، بدلَ مُغادرتهم كي يُعيلوا أنفسهم وحدهم. لماذا لم يستطع أن يكونَ مُتعلِّقًا هذه المرَّة بعينها وينتظرَ هدوءَ العاصفة؟

انفتحَ البابُ على مهل، وقفزَ قلبُ هدسَّة هَلَعًا، مُعيدًا إيَّها فجأةً إلى الحاضر العابس. لقد اقتحمَ اللصوصُ البيوتَ أسفلَ الشارع، وقتلوا ساكنيها لأجلَ رغيْفٍ من الخُبزِ المُدخَّر. ولكنَّ من دخلَ كانَ مَرُقْس. فأطلقتَ نَفْسَها، مُنفرجةً لرؤيته. وهمست بعُطفٍ: ”كنتُ خائفةً عليك. مضى على غيابك ساعات“.

دفعَ البابَ حتَّى انغلق، وبدا عليه الإنهاكُ الشديد، واستندَ إلى الجدار بقُربِ أختيه. ”ماذا وجدت؟“ كانتَ تنتظرُه ليُخرجَ أيَّ شيءٍ وجدَه من تحت قميصه. فأثي طعام يوجَد، يجبُ أن يُخبَّأ، وإلا هاجمهم أحدٌ ما من أجله.

نظر إليها مَرُقْس يائسًا. ”لا شيء. لا شيء البتَّة. لا حذاءً باليًا، ولا حتَّى جلد تُرسٍ من جُنديٍّ مَيِّت. لا شيء“.

ثمَّ بدأ يبكي وكَتفاه تهترآن. ”أشش، ستوقظ ليثه وماما“. ومددَت هدسَّة أمَّها من جديدٍ برُفقي على الحرام، ثمَّ ذهبَت إلى مَرُقْس، فطوّقتَه بذراعيها وأسندتُ رأسها إلى صدره. ”لقد حاولت، يا مرقس. أنا أعرفُ أنك حاولت“.

”ربما كانتَ مشيئةُ الله أن نموت“.

فقالَت من دون تفكير، وقد عاجلتها الدُموع: ”لستُ على يقين بأنِّي أريدُ مشيئةَ الله بعدَ الآن. قالتُ ماما إنَّ الربَّ سيُدبِّر“. ولكنَّ كلامها بدا فارغًا. فإيمانها ضعيفٌ جدًّا. وهي ليستُ مثلَ أبيها وأمَّها. حتَّى ليثه، على الرُغم من صِغَرها، كانتَ تحبُّ الربَّ من كلِّ قلبها. ومَرُقْس بدا مُتقبِّلًا الموتَ تمامًا. فلماذا كانتَ هي دائمةً من يُسائلُ ويُسكُّ؟

ليكنَ لكِ إيمان. ليكنَ لكِ إيمان. حينَ لا يكونُ لكِ أيُّ شيءٍ آخر، فليكنُ لكِ إيمان.

قال مَرُقْس وهو يرتجف، ساحبًا إيَّها خارجَ أفكارها الكثيبة: ”إنَّهم يطرحون الجُثثَ في وادي إل زبادي وراءَ الهيكل المقدَّس، آلافَ الجُثث، يا هدسَّة“.

تذكَّرتُ هدسَّة هولَ وادي هِنوم. فهناك كان أهلُ القُدس يتخلَّصون من الحيوانات النافقة وغير الطاهرة، ويكبُّون نفاية الليل. وكانت سِلالٌ من الأظلاف والأحشاء وبقايا

الحيوانات من الهيكل تُحمَل إلى هناك وتُرمى. وقد غَزَت المكانَ الجِرذَانُ وطيورُ الجِيفِ، وكثيرًا ما حملت الرِّياحُ الحارَّةَ رائحةَ النَّتنِ إلى أرجاء المدينة. وكان الوالدُ يُسمِّي ذلك المكانَ جِهِنًا. ”في مَوْضِعٍ غير بعيد من هنا صُلِبَ ربُّنا“.

أدخلَ مَرْقُسُ يدهُ في شعره من فوق جبينه، وقال: ”خِفْتُ أن أقْتَرَبَ أكثر“.

أطبقتْ هَدَسَةُ عَيْنَيْهَا إطباقًا قويًّا، ولكنَّ السُّؤالَ برزَ جليًّا وفجًّا رُغمَ إرادتها: هل طُرِحَ أبوها في ذلك المَكانِ، بلا كرامة، متروكًا حتَّى يتحلَّلَ تحت حرارة الشمس؟ ثمَّ عَضَّتْ شفتيها وحاولتْ طَرْدَ تلك الفكرة بعيدًا.

وقال مَرْقُسُ ببطء: ”لقد رأيتُ تِيطُسَ. كان يعبُرُ رَاكِبًا بِرِفْقَةٍ بعضٍ من رجاله. ولمَّا رأى الجُثثَ، صرخ. لمَ أقْدِرُ أن أسمعَ كلماته، ولكنَّ رجُلًا قال إنَّه كان يدَعُو إلى يهوه قائلًا إنَّ ذلك ليسَ من فِعْلِهِ هو“.

”إذا استسلمتِ المدينةُ الآنَ، فهل يُبدي رحمة؟“

”إن استطاعَ السيطرةُ على رجاله. فهم يكرهون اليهودَ ويُرِيدون أن يَرَوْهم مُبَادِين“.

”ونحنُ أيضًا من جُمَلَتِهِمْ“. ثمَّ أضافتْ مُرتعدةً: ”لن يعرفوا الفرقَ بين المؤمنين أتباعِ الطريقِ^٣ وأعضاء حزبِ الغيورين، هل يعرفون؟ فلا فرقَ عندهم بين مُثِيرِ فتنَةٍ ويهوديٍّ تقِيٍّ، أو حتَّى مسيحيٍّ“. واغرورتَ عيناها. ”أهذه مشيئةُ الله، يا مرقس؟“

”قال والدنا إنَّها ليستْ مشيئةُ الله أن يُعانيَ أحدٌ؟“

”إدَّا، لماذا ينبغي لنا نحن أن نُعاني؟“

”إننا نتحمَّلُ العواقبَ من جرَّاء ما فعلناه لأنفسنا، ومن جرَّاء الخطيئة التي تسود هذا العالمَ. لقد غفرَ السيِّدُ المسيحُ لِلصِّ، ولكنَّه لم يُنزِلْهُ عَنِ الصليبِ“. ثمَّ دَسَّ يدهُ في شعره ثانيةً، وأضاف: ”لستُ حكيماً مثل والدنا. لا أجوبةً عندي عن السَّببِ، ولكنني أعلمُ أنَّه يُوجدُ رجاءٌ“.

”أيُّ رجاءٍ، يا مَرْقُسُ؟ أيُّ رجاءٍ يوجد؟“

”اللهُ دائماً يُبقي بقيَّةً“.

٣ نلقتُ عنايةَ قَرَّائنا الكرامِ إلى وجودِ مسردٍ للمصطلحاتِ ابتداءً من صفحة ٥٤٧ أُدرجَ فيه عددٌ من المصطلحات التي شاعت في تلك الحقبة التاريخية (الناشر).

دامَ الحصارَ ثَقِيلًا. وبينما انْحَسَرَتِ الحِياةَ داخِلَ مَدِينَةِ القُدسِ، لم تَهِنِ رُوحُ المَقاومةِ عِنْدَ أهلِها. وبَقِيَتِ هَدَسَةٌ داخِلَ البَيتِ الصَغيرِ، سامِعَةً هَوَلَ ما يَجرِي خارِجَ بابِهِم غيرَ المُقفلِ تَمامًا، إذ كانَ رَجُلٌ يَرُكُضُ في الشارِعِ صاراخًا: ”لقد صَعِدوا على السُورِ!“.

ولَمَّا خَرَجَ مَرُقُسٌ لِيَريَ ما يَجرِي، أَصابَتِ الهِستِيريا لَيثَةً. فتوجَّهَتْ هَدَسَةٌ إلى أُختِها وعانقَتُها بِقوَّة. وقد شَعَرَتْ بأنَّها تَكاذُبُ نَجْنٌ هي أيضًا، ولكنَّ اعتناءَها بأُختِها الصَّغرى أَسَهَمَ في تَهْدِئَتِها شَخِصِيًّا.

”سيكون كلُّ شيءٍ بخيرٍ، يا لَيْثَةُ. اهدِإي!“ وبَدَتِ كَلِماتُها بلا مَعنى في أذُنِها هي. ثُمَّ أَضافَتِ مُرَبَّتَةٌ أُختَها بِرفقٍ: ”الرَبُّ يَحرسُنَا“.

ابتهالٌ من الكِذباتِ المُعزِّيةِ، لأنَّ العالَمَ كانَ يَناهزُ حَوالِيهِم. ونظَرَتْ هَدَسَةٌ إلى أمِّها عبَرَ الغَرفةِ فأحسَّتِ الدُموعَ آتِيَةً من جَدِيدٍ. وابتَسَمَتِ أمُّها بِفتورٍ، كما لو كانتُ تُريدُ أن تَطْمَئِنِّها، غيرَ أنَّها لَم تَشعُرْ بأَيَّةِ طُمأنينةٍ. تُرى، ماذا سَيَحِلُّ بِهِم؟

لَمَّا رَجَعَ مَرُقُسُ، أَخبرَهُنَّ بالمَعرِكةِ الدائِرةِ داخِلَ الأَسوارِ. فالِيهودُ حوَّلوا مَجرَها وبادَوا بِرُدِّونِ الرُّومانِ.

ولكنَّ تلكَ اللَّيلةِ، تحتَ جُنحِ الظَّلامِ، تسلَّلَ عَشْرَةٌ من جنودِ أحدِ فيالقِ الجَيشِ الرُّومانيِّ عبَرَ خِزَبِ المَدِينَةِ واستولَوا على قَلعةِ أنطونيا. ووصلَ القِتالُ إلى مَدخَلِ الهِيكَلِ المُقدَّسِ تَمامًا. ومع أنَّ هَجومَ الرُّومانِ قد رُدَّ ثابِتًا، فقد رَدُّوا بِتَدْمِيرِ بعضِ أساساتِ القَلعةِ، وفتحوا الطَريقَ إلى دارِ الأُمِّ. وفي مُحاولَةٍ لِإِلْهائِ الرُّومانِ، هاجَمَهُم العَيبورونَ عِنْدَ جَبَلِ الرِّيتونِ. وإذ أخفقَ الهَجومُ، تَبَدَّدوا. ثُمَّ صُلبَ الأَسرى أمامَ أسوارِ المَدِينَةِ حتَّى يَراهُمُ الجَميعُ.

خَيَّمَ الهدوءُ من جَدِيدٍ. ثُمَّ عَمَّ المَدِينَةَ كُلُّها هَوَلَ جَدِيدٌ أَشدَّ فَتكا، إذ انتَشَرَ خَبرُ امرَأَةٍ جانِعةٍ أَكلتِ ابنتَها. عِنْدئذٍ اشْتَعَلَ لَهيبُ البُغْضِ الرُّومانيِّ نارًا مُتأجِّجةً.

نادى يوسيفوسُ بِنِي شَعْبِهِ ثابِتًا، مُؤكِّدًا أنَّ اللهَ كانَ يَستَخدِمُ الرُّومانَ لِإِهْلاكِهِم، إتمامًا لِنُبُوءاتِ النَّبِيِّينَ دانيالَ وَيَسوعَ. ثُمَّ جَمَعَ اليَهُودَ كُلَّ ما اسْتَطاعوا العُثورَ عليه من المَوادِّ الجِلافةِ والرَّفِّ والقارِ، ومَلأوا الأروقةَ المُسقوفةَ. واندفعَ الرُّومانُ إلى الأمامِ، فأخلى اليَهُودُ السَّاحةَ، واستدَرجوا الرُّومانَ إلى داخِلِ الهِيكَلِ. وما إنَّ باتَ هَؤلاءُ في الداخِلِ، حتَّى أَضرمَ اليَهُودُ النَّارَ في مَقامِهِم المُقدَّسِ، مُحْرِقِينَ جنودًا كَثِيرِينَ داخِلَه حتَّى المَوتِ.

استعادَ تَيطسُ السَّيطرةَ على جنودِهِ المُسَخَطِينَ، وأمرَ بِإِخمادِ النَّارِ، ولكنَّ ما إنَّ نَجحَ هَؤلاءُ في إنْقاذِ الهِيكَلِ، حتَّى شَنَّ اليَهُودُ هَجومًا جَدِيدًا. وهذه المَرَّةُ لَم يَستَطعَ جَميعُ صُباطِ روما أن

يَكْبَحُوا جَمَاحَ جُنُودِ الْفِيلِقِ الرُّومَانِيِّ السَّاحِطِينَ. وَإِذْ دَفَعَ هَؤُلَاءُ تَعَطُّشَهُمْ لِلدَّمَاءِ الْيَهُودِيَّةِ، أَشْعَلُوا الْهَيْكَلَ مِنْ جَدِيدٍ، وَقَتَلُوا كُلَّ كَائِنٍ بَشَرِيٍّ وَجَدُوهُ فِي طَرِيقِهِمْ فِيمَا بَاشَرُوا نَهَبَ الْمَدِينَةِ الْمَقْهُورَةِ.

سَقَطَ الرُّجَالُ بِالْمِائَاتِ إِذْ اِكْتَنَفَتِ أَلْسِنَةُ اللَّهَبِ السُّتَارَةَ الْبَابِلِيَّةَ الْمُطْرَزَةَ بِخِيُوطٍ دَقِيقَةٍ زُرْقَاءَ وَقِرْمِزِيَّةَ وَأَرْجَوَانِيَّةَ. وَمِنْ عَلَى سَطْحِ الْهَيْكَلِ الْعَالِي، نَادَى نَبِيٌّ كَذَّابٌ الشَّعْبَ أَنْ يَصْعَدُوا وَيَنْجُوا. وَتَرَدَّدَتْ فِي أَرْجَاءِ الْمَدِينَةِ صَرَخَاتُ الْكَرْبِ مِنَ النَّاسِ وَهُمْ يَحْتَرِقُونَ أَحْيَاءً، مُخْتَلِطَةً بِأَصْوَاتِ الْقِتَالِ فِي الشُّوَارِعِ وَالْأُرِيقَةِ. وَالتَّهَمَ السَّيْفُ رَجَالًا وَنِسَاءً وَأَطْفَالًا، مِنْ دُونَ تَمْيِيزِ.

حَاولَتْ هَدَسَةُ أَنْ تُبْقِيَ صَوْتَ الْمَوْتِ خَارِجَ ذِهْنِهَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُدَوِّي فِي كُلِّ مَكَانٍ. وَمَاتَتْ أُمُّهَا فِي الْيَوْمِ الْحَارِّ مِنْ شَهْرِ آبِ/أَغُسْطُسِ ذَاكَ الَّذِي فِيهِ سَقَطَتْ أُورُشَلِيمَ. وَعَلَى مَدَى يَوْمَيْنِ، ظَلَّ مَرْقُسٌ وَهَدَسَةُ وَلِيئَةٌ يَنْتَظِرُونَ، عَالِمِينَ أَنَّ الرُّومَانَ سَيَعْتَرُونَ عَلَيْهِمْ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا وَيَفْتِكُونَ بِهِمْ كَمَا فَتَكُوا بِكُلِّ شَخْصٍ سِوَاهُمْ.

هَرَبَ أَحَدُهُمْ فِي شَارِعِهِمُ الضَّيِّقِ. وَصَرَخَ آخَرُونَ وَهُمْ يُصْرَعُونَ بِلَا رَحْمَةٍ. وَأَرَادَتْ هَدَسَةُ أَنْ تَفْزَ وَتَهْرَبَ، وَلَكِنْ إِلَى أَيْنَ يُمْكِنُهَا أَنْ تَذْهَبَ؟ وَمَاذَا بِشَأْنِ أُخْتِهَا وَأُخْيَهِهَا؟ فَانْكَفَأَتْ مِنْ جَدِيدٍ لِتَتَوَارَى فِي ظِلَالِ الْعُرْفِ الصَّغِيرَةِ الْمُظْلِمَةِ، مُسْكِنَةً بِأُخْتِهَا لَيْئَةً.

مَزِيدٌ مِنَ أَصْوَاتِ الرُّجَالِ. أَعْلَى. أَقْرَبَ. ثُمَّ حُطَّمَ بَابٌ مُنْفَتِحًا فِي مَكَانٍ غَيْرِ بَعِيدٍ. وَصَرَخَ الْأَشْخَاصُ الَّذِينَ فِي الدَّخْلِ، فَأَخْرَسُوا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ.

جَاهَدَ مَرْقُسٌ، وَهُوَ ضَعِيفٌ وَمُضْتَيٌّ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى قَدَمَيْهِ أَمَامَ الْبَابِ، مُصَلِّيًا فِي سِرِّهِ. وَخَفَقَ قَلْبُ هَدَسَةَ بِشِدَّةٍ، وَقَدْ تَشَنَّجَتْ مَعِدَتُهَا الْخَاوِيَةَ كُرَّةً مِنَ الْأَلَمِ. وَسَمِعَتْ أَصْوَاتَ رِجَالٍ فِي الشَّارِعِ. كَانَتْ الْكَلِمَاتُ يُونَانِيَّةً، وَاللَّهْجَةُ سَاخِرَةً. وَأَصْدَرَ أَحَدَ الرِّجَالِ أَوَامِرَ بِتَفْتِيشِ الْبُيُوتِ التَّالِيَةِ. ثُمَّ تَحَطَّمَ بَابٌ آخَرَ، وَانْطَلَقَ مَزِيدٌ مِنَ الصُّرَاخِ.

اقْتَرَبَ مِنْ بَابِهِمْ وَقَعَ أَحَدِيَّةٌ ذَاتَ مَسَامِيرَ. فَقَفَزَ قَلْبُ هَدَسَةَ دُعْرًا. "أَه، يَا اللَّهُ..."

قَالَ لَهَا مَرْقُسٌ وَالْهَدُوءُ بَادٍ عَلَيْهِ عَلَى نَحْوِ غَرِيبٍ "أَعْمِضِي عَيْنَيْكَ، يَا هَدَسَةُ. اذْكُرِي الرَّبَّ"، فِيمَا انْفَتَحَ الْبَابُ مُحْطَمًا. ثُمَّ أَطْلَقَ مَرْقُسٌ صَوْتًا أَجَشَّ مُتَهَدِّجًا، وَخَرَّ جَانِبًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ. وَنَتَأَ رَأْسُ سَيْفٍ يَقْطُرُ دَمًا مِنْ ظَهْرِهِ، مُخْضَبًا رَادِعَهُ الرَّمَادِيُّ بِاللَّوْنِ الْأَحْمَرِ. وَغَمَرَ الْعُرْفَةَ الصَّغِيرَةَ صُرَاخَ لَيْئَةِ الْعَالِي.

ثُمَّ رَكَلَ الْجُنْدِيُّ الرُّومَانِيُّ مَرْقُسَ إِلَى الْوَرَاءِ، مُحْرِّرًا سَيْفَهُ.

لَمْ تَسْتَطِعْ هَدَسَةُ أَنْ تَنْبَسَ بِصَوْتٍ. وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَحَرَّكَ حَيْثُ حَدَّقَتْ إِلَى الرَّجُلِ وَدِرْعُهُ مُغْطَى بِالْعُبَارِ وَدَمِ أُخْيَهِهَا. وَقَدْ بَرَقَتْ عَيْنَاهُ مِنْ وَرَاءِ مُقَدَّمِ خَوْذَتِهِ. حَتَّى إِذَا تَقَدَّمَ إِلَى

الأمم، رافعاً سيفه المدمى، تحركت هدسة بسرعة ومن دون تفكير واع، فدفعت ليثة أرضاً وارتمت فوقها. وصلت: أه، يا الله، ليتني الأمر سريعاً؛ ليكن عاجلاً! ولأذت ليثة بالصمت. وكان الصوت الوحيد هو صوت تنفس الجندي الحشني المزجج، مختلطاً بالصراخات الصادرة من أسفل الشارع.

شدد ترتيوس قبضته على سيفه، وحدق إلى الفتاة الصغيرة المهزولة تحته مغطية فتاة أصغر بعد. كان عليه أن يقتلها كليهما منهيًا الأمر بسرعة! هؤلاء اليهود الملاعين كانوا آفة على روما. إنهم يأكلون حتى أولادهم! فلتبذ النساء فلا يولد مزيد من المحاربين. هذه الأمة تستحق الإبادة. ليس عليه إلا أن يقتلها ويتخلص منهما.
ما الذي أوقفه؟

رفعت الفتاة الكبرى نظرها إليه، وعيناها السوداوان مملوءتان خوفاً. كانت بالغة الصغر والهزال، ما عدا عينيها الكبيرتين جداً على وجهها الشاحب. إن شيئاً ما حوالبها أو هن قوة ذراعها القاتلة، فهذا تنفسه وتباطأ حفاق قلبه.

حاول أن يذكر نفسه بالأصدقاء الذين فقدهم. فديوكليس قتل بحجر عند بناء تجهيزات الحصار. وملسيناس وقع عليه ستة محاربين عند اختراق السور الأول. وكاينوس أحرق حتى الموت عندما أضرم اليهود النار في هيكلهم. وأليون ما زال يعاني من جراء جراحه بسهم يهودي.
على الرغم من ذلك بردت حرارة دمه.

أنزل ترتيوس سيفه، وهو مرتعد. وإذا ما زال متيقظاً لأية حركة تصدرها الفتاة، أجال نظره في أنحاء الغرفة الصغيرة. لقد انحلى بصره من الغمامة الحمراء. إن من قتله كان ولدًا. وهو منطرح في بركة دم بقر امرأة. وقد بدت وادعة، كما لو كانت نائمة فحسب، وشعرها ممشط بترتيب، ويدها مطويتان على صدرها. فعلى خلاف أولئك الذين اختاروا أن يطرحوا موتاهم في الوادي، مدد هؤلاء الأولاد أمهم بكرامة لائقة.

كان قد سمع خبر امرأة أكلت ولدها، وغذى ذلك ضغينته على اليهود، تلك التي اكتسبها منذ عشر سنين طوال في اليهودية. ولم يكن يريد شيئاً سوى محوهم من على وجه الأرض. فهم لم يكونوا إلا مصدر بلاء لروما منذ البداية، متمردين ومتكبرين، غير قابلين أن ينحنوا أمام أي شيء سوى إلههم الواحد.

إله واحد حقيقي. التوى فم ترتيوس القاسي التواءة سخرية. مجانين، كلهم. فإيمان

المرء بالهٍ واحدٍ فقط ليس مدعاةً للشُّخْريَّةِ فحسب، بل هو أيضًا أمرٌ همجيٌّ يُنافي الحضارة. ثمَّ إنَّهم - على الرُّغم من جميع توكيداتهم المقدَّسة وإصرارهم العنيد - شعبٌ غيرُ مُتمدِّنين. فإليك ما قد فعلوه بهيكلهم الخاصَّ.

كم قُتِلَ من اليهود في الأشهر الخمسة الأخيرة؟ لم يكلف نفسه عناء الإحصاء وهو ينتقل من بيتٍ إلى آخر، يسوقه تعطُّشه للدماء، مُتصيدًا إيَّاهم كالحوانات. قَسَمًا بالآلهة، لقد تلذَّذ بذلك، حاسبًا كُلَّ مَوْتٍ قَسَطًا رمزيًّا بسيطًا يُوذِّيه عَوْضًا عن الأصدقاء الذين سلَّبوهم إيَّاهم.

لماذا تردَّد الآن؟ أكان ذلك شفقةً على طفلةٍ يهوديةٍ نكدةٍ غادِرةٍ؟ أرحمُ أن يقتلها ويُرِيحَها من بؤسها. لقد كانت نحيلاً جدًّا من شدَّة الجوع حتَّى أمكنَ أن يُطِيرَها بنفخة. وخطا نحوها خطوةً أخرى. في وُسْعِه أن يقتلَ كلتا الفتاتين بضربةٍ سيفٍ واحدة... وحاولَ أن يستدعي الرُّغبة في فعلٍ ذلك.

لَبَّتِ الفتاةُ تنتظر. كان واضحًا أنَّها مرعوبة، غيرَ أنَّها لم تسترحم كما استرحم كثيرون جدًّا. فهي والفتاة التي تحتها كلتاها كانتا ساكنتين ساكنتين تُراقبان. انعطَفَ قلبُ تَرْتِيوس، وشعرَ بالضعف. ثمَّ أخذَ نفسًا سريعًا حَشِنًا، وزفرَ بحدَّة. ودسَّ سيفه في العِمْد على خاصرته. ”ستعيشان، ولكنكما لن تشكراني على ذلك“.

كانت هدسة تعرف اليونانية. فقد كانت هذه لغة شائعة بين جنود الرومان، وهكذا كانت تُسمع في جميع أنحاء اليهودية. وبدأت هدسة تبكي. فأمسك تَرْتِيوس بذراعها، وأوقفها على قدميها بنتره واحدة.

نظرَ تَرْتِيوس إلى الفتاة الصغيرة المنطرحة على الأرض. كانت عيناها مفتوحتين وشاحصتين إلى مكانٍ بعيدٍ فرَّ إليه ذهنها. ولم تكن تلك أول مرةٍ فيها يرى تَرْتِيوس حَمَلَةً كهذه. فهي لن تدوم طويلاً.

ارتاعت هدسة من النظرة الجوفاء في عيني أختها. فانحنت وطوّقتها بذراعيها، قائلةً: ”ليئة، أختاه!، وحاولت أن تنهضها.

علم تَرْتِيوس أنَّ البنت الصغيرة قد ماتت، لا محالة، وأنَّ تَرَكَها حيثُ هي معقولٌ أكثر. ولكنَّ الطريقة التي بها حاولت البنت الكبرى أن تجمَع الصغيرة بذراعيها وترفعها أثارت شفقتَه. فحتَّى وزن البنت الخفيف كان أثقلَ من أن تحمله هدسة.

أزاح تَرْتِيوس هدسةً لأمباليًا، ورفع الفتاة الضئيلة بسهولة، وطرَحها برفقٍ على كتفه

كَانَهَا كَيْسُ حَنْطَةٍ. ثُمَّ أَمْسَكَ الْفَتَاةَ الْكُبْرَى بِذِرَاعِهَا، وَدَفَعَهَا خَارِجَ الْبَابِ.

كَانَ الشَّارِعُ هَادِئًا، إِذْ وَاصَلَ الْجُنُودُ الْآخَرُونَ تَقْدِمَهُمْ وَدَوَّتْ صَرَخَاتُ بَعِيدَةٍ. فَمَشَى بِسُرْعَةٍ، مُتَنَبِّهًا إِلَى أَنَّ الْفَتَاةَ كَانَتْ مُجَاهِدًا لِمُجَارَاتِهِ.

عَبَقَ جَوُّ الْمَدِينَةِ بِنَتَانَةِ الْمَوْتِ. كَانَتْ الْجُنْتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَقَدْ سَقَطَ بَعْضُهَا بِسُيُوفِ الْجُنُودِ الرُّومَانَ الَّذِينَ كَانُوا يَنْهَبُونَ الْمَدِينَةَ الْمُقَهْوَرَةَ، وَبَعْضُهَا مِنْ جَرَاءِ الْجُوعِ، وَهَذِهِ الْأَنْ مُنْتَفِحَةٌ وَمُتَحَلِّلَةٌ بَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ تَرَكِهَا هُنَاكَ حَتَّى تَتَعَفَّنَ. وَحَمَلَتْ أَمَارَاتُ الرُّعْبِ الَّتِي غَطَّتْ وَجْهَ الْفَتَاةِ تَرْتِيوسَ عَلَى التَّسَاوُلِ كَمَا مَضَى عَلَيْهَا مِنَ الزَّمَنِ وَهِيَ مَحْبُوسَةٌ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ. قَالَ وَهُوَ يَبْصُقُ عَلَى التُّرَابِ: ”مَدِينَتُكُمْ الْمَقْدَسَةُ الْعَظِيمَةُ!“

مَسَّ الْأَلَمُ ذِرَاعَ هَدَسَةَ إِذْ انْغَرَزَتْ أَصَابِعُ الْجَنْدِيِّ فِي لَحْمِهَا. وَتَعَثَّرَتْ بِسَاقِ رَجُلٍ مَيِّتٍ. وَكَانَتِ الدِّيدَانُ الْغَازِيَةَ تَرْحَفُ عَلَى وَجْهِهِ كُلِّهِ. الْأَمْوَاتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَهَدَسَةُ تَكَادُ يُعْشَى عَلَيْهَا.

كَلَّمَا أَوْعَلَا فِي السَّيْرِ، زَادَتْ أَهْوَالُ الْمَجْزَرَةِ. فَالْأَجْسَادُ الْمُتَحَلِّلَةُ كَانَتْ مَطْرُوحَةً وَهِيَ مُتَشَابِكَةٌ مَعَ الْحَيَوَانَاتِ الْمَقْتُولَةِ. وَكَانَتْ تَنَانُةُ الدَّمِّ وَالْمَوْتِ قَوِيَّةً جَدًّا حَتَّى غَطَّتْ هَدَسَةَ فَمَهَا. صَاحَ تَرْتِيوسُ بِجَنْدِيِّ كَانَ يَفْصِلُ الْأَمْوَاتِ: ”إِلَى أَيْنَ نَأْخُذُ الْأَسْرَى؟“ وَكَانَ جُنْدِيَّانِ يَرْفَعَانِ رَفِيقًا رُومَانِيًّا مِنْ بَيْنِ يَهُودِيِّينَ. وَبَدَأَ جُنُودٌ آخَرُونَ يَحْمِلُونَ غَنَائِمَ مِنَ الْهَيْكَلِ. وَقَدْ امْتَلَأَتْ عَرَبَاتُ بَأْوَانٍ ذَهَبِيَّةٍ وَفِضِيَّةٍ بَرَّاقَةٍ، مِنْ طُسُوتٍ وَصِخَافٍ وَقُدُورٍ وَمِنَائِرٍ وَمَقْصَّاتٍ فَتَائِلٍ. كَمَا كُدَسَتْ مَجَارِفُ وَقُدُورٌ مِنْ نَحَاسٍ، فَضْلًا عَنْ مَغَاسِلٍ وَمَبَاخِرٍ وَأَدْوَاتٍ أُخْرَى كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ فِي خِدْمَةِ الْهَيْكَلِ.

رَفَعَ الْجَنْدِيُّ عَيْنَيْهِ نَحْوَ تَرْتِيوسَ، وَأَلْقَى نَظْرَةً خَاطِفَةً عَلَى هَدَسَةَ وَلَيْثَةٍ. ”سِرْ فِي الشَّارِعِ، ثُمَّ انْعَطِفْ وَادْخُلْ عَبْرَ الْبَوَابَةِ الْكَبِيرَةِ، وَلَكِنَّ هَاتَيْنِ الْاِثْنَتَيْنِ لَا تَبْدَوَانِ مُسْتَحَقَّتَيْنِ عِنَاءِ الْاِهْتِمَامِ بِهِمَا“

نَظَرَتْ هَدَسَةُ إِلَى رُخَامِ الْهَيْكَلِ النَّقِيِّ أَصْلًا، ذَاكَ الرُّخَامِ الَّذِي كَانَ يَبْدُو مِنْ بَعِيدٍ مِثْلَ جَبَلٍ يُكَلِّهُ التَّلْجُ. أَمَّا الْآنَ فَهُوَ مُسْوَدٌّ، وَقَدْ اقْتَلَعَتْ قِطْعٌ مِنْهُ مِنْ جَرَاءِ حِجَارَةِ الْحِصَارِ، وَانْصَهَرَ الذَّهَبُ وَزَالَ. وَكَانَتْ أَجْزَاءُ كَامِلَةٌ مِنَ الْجُدَارِ قَدْ انْهَارَتْ. الْهَيْكَلُ الْمَقْدَسُ! لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَكَانًا آخَرَ لِلْمَوْتِ وَالْخُرَابِ.

تَحَرَّكَتْ هَدَسَةُ بِنْتًا قَلْبًا، وَقَدْ أَمْرَضَهَا وَرَّوعَهَا كُلُّ مَا شَاهَدَتْهُ. وَأَلْهَبَ الدُّخَانُ عَيْنَيْهَا وَحَلَقَهَا. وَبَيْنَمَا هُمْ سَائِرُونَ بِمُحَادَاةِ سُورِ الْهَيْكَلِ، كَانَ فِي وَسْعِهَا أَنْ تَسْمَعَ صَوْتَ ارْتِعَابٍ

متعالياً ومتموجاً، مُنبَعثاً من الداخل . كان فمها جافاً، وأخذ قلبها يخفق بضرباتٍ أشدَّ وأسرع
إذ اقتربوا من البوابة المؤدية إلى دار النساء .

دفعَ تَرتيوس الفتاة دفعةً عنيفة . ”لِيَعْمَ عَلَيْكَ، فَأَقْتُلِكِ حَيْثُ تَسْقُطِينَ، وَأَخْتَكِ مَعَكِ!“
كان داخلَ الهيكل آلاف من الناجين، بعضهم يَنْتَجِبُونَ في بؤسهم وآخرون يُؤَلِّلون
على موتاهم . ودفعها الجنديُّ أمامه عبرَ البوابة، فرأتُ جُمهورَ البائسين قُدَّامها، وقد اكتظت
بهم دارُ النساء . وكان أغلبُهم مهزولين جوعاً، ضِعفاءً، يائسين .

أنزلَ تَرتيوس الفتاة عن كتفه . وأمسكتُ هَدَسَةَ بليئةٍ مُحاولَةً إسنادَها . فخرتُ مُترنحةً،
وتشبَّهتُ بِحِصْنٍ أختها في فتور، وأدارَ الجنديُّ ظهره، ثُمَّ مشى مُبتعداً .

كان الألافُ يجولون هائمين، بحثاً عن أقباءٍ أو أصدقاء . واحتشدَ آخرون في مجموعاتٍ
أصغر مُنتجبين، فيما كان بعضٌ وحدهم يُحدِّقون إلى لا شيء، مثلاً فعلتُ ليئة . وكان الهواءُ
ساخناً جدًّا، حتَّى لَمْ تَكِدْ هَدَسَةَ تستطيعُ التنفُّس .

شوقٌ لاويُّ رداءه الأزرق والبُرْتُقاليُّ البالي، وصرخٌ بألمٍ عاطفيٍّ مُبرِّحٍ: ”إلهي! إلهي!
لماذا تركتنا؟“ وأخذتِ امرأةٌ بقربه تُولولُ بشكلٍ يُرْتَى له، وثوبها الرَّماديُّ مُصْرَجٌ بالدم
ومُزَّقٌ عند الكتف . وكان شيخٌ مُتلفَعٌ بثيابٍ مُخطَّطةٍ بالأسود والأبيض جالساً وحده، مُستنداً
إلى جدارِ دارِ النساء، وشفثاه تتحرَّكان . وعرفتُ هَدَسَةَ أَنَّهُ من السَّنْهَدِيمِ، وثيابهُ تُمثِّلُ زِيَّ
الصَّحراءِ وخِيَامِ الأَباءِ الأُولين .

اختلطَ بالجُمهورِ أشخاصٌ نذِرون بشعرهم الطويل المصفور، وغَيورون بسرّوايلهم
الخَشِنة المُتَسَخِة وقمصانهم التي يلبسون فوقها صُدْرَاتٍ قصيرةً دون أكمام، لها أهدابٌ زرقاءُ
عند كلِّ طَرَفٍ . ومع أَنَّهُمْ جُرِّدوا من خناجرهم وأقواسهم، فقد ظلُّوا يظَهرون خَطِرِينَ .

ثُمَّ تَشَبَّهَ عِراكُ، وشرعتِ النساءُ بالصَّراخ . فشوقُ اثنا عشر جنديًّا رومانيًّا طريقهم بينَ
الجُمهورِ، وصرَّعوا المُتعارِكين وبضعةٍ أشخاصٍ آخرين ذنبهم الوحيد أَنَّهُمْ كانوا قريبين جدًّا
منهم . ووقفَ ضابطٌ رومانيٌّ على أعلى الدَّرَجِ، وصاحَ على الأسرى . وأشارَ إلى بضعةٍ رجالٍ
آخرين وسطَ الجُمهورِ، فَجُرُّوا بعيداً كي يُصلبوا .

استطاعتُ هَدَسَةَ أن تُنهِضَ ليئةً وتنتقلَ إلى مكانٍ أكثرَ أماناً بجانب الجدارِ، قُرب
اللَّوِيِّ . وإذْ غابَتِ الشمسُ وخيَّمَ الظلامُ، ضُمَّتُ ليئةً بشدَّةٍ، مُحاولَةً أن تُدْفِنَها . ولكنْ في

٤ السَّنْهَدِيمِ هو المجلسُ اليهوديُّ، وكان يُعدُّ قديماً المحكمةَ العُليا للأُمَّة العبرية (الناشر) .

الصباح، كانت لَيْئَةً مَيِّتَةً.

كان وجهُ أختِها الحلُو خاليًا من الخوف والألم. وقد ارتسمت على فمِها ابتسامةٌ لطيفة. شدتْ هَدَسَةٌ أختِها إلى صدرها، وهزَّتْها بقوة. وتفاقمَ الألمُ فمَلاًها بأسًا عميقًا جدًّا، حتَّى تعذَّرَ عليها مُجرَّدُ البكاء. ولمَّا أقبلَ نحوها جنديُّ رومانيٍّ، لمْ تكدْ تُلاحِظه، إلى أنْ حاولَ أنْ يأخذَ لَيْئَةً ويُعدها منها. فتشبَّثتْ بها بشدَّةٍ أقوى.

”إنَّها مَيِّتة. أعطيني إيَّها“.

دَسَّتْ هَدَسَةٌ وجهَها في طَيِّةٍ عنقِ لَيْئَةٍ، وأخذتْ تنوح. وكان الرومانيُّ قد شاهدَ مِيتاتٍ كثيرةً حتَّى تقسَّى قلبه. فضربَ هَدَسَةَ ضربةً واحدةً جعلتها تفلتَ أختِها، ثمَّ رفسها مُبعِدًا إيَّها بعيدًا.

وإذِ اعترها الدُّوار، وتصلَّبَ جسْمُها من شدَّةِ الألمِ، حملتْ عاجزةً فيما حملَ الجنديُّ لَيْئَةً إلى عربةٍ كُدِّسَتْ فيها جُثثُ آخرين ماتوا في أثناء الليل. ورمى جسدَ أختِها الهَشَّ فوق الكومة.

أطبقتْ هَدَسَةٌ عينيها، وجذبتْ رجليها، ثمَّ حنَّتْ رأسها على ركبتيها، واسترسلتْ في البكاء.

مرَّتْ الأيَّامُ سريعًا. وماتتْ مئاتٌ من جِراءِ الجوع، وأكثرُ منهم من جِراءِ اليأسِ وفقدانِ الرجاء. وأخذَ بعضُ الأسرى الأقوياءِ البنيةِ لِحْفَرِ قبورِ جماعيَّة.

سَرَّتْ شائعاتٌ بأنَّ تيطُسَ أصدرَ أوامِرَ بهدمِ المدينةِ كُلِّها، لا الهيكَلِ وحدَه. إنَّما وجبَ الإبقاءُ على قِلاعِ فاسيلوس وهيبيكوس ومرميَّةٍ لأغراضٍ دفاعيَّة، والإبقاءُ أيضًا على جزءٍ من السُّورِ الغربيِّ. ولمْ يَكُنْ قد حدثَ شيءٌ مثل ذلك منذُ أنْ دكَّ الملكُ البابليُّ نبوخذنصرُ هيكلَ سليمان. فإنَّ أورشليمَ، مدينتَهم المحبوبة، لَنْ تكونَ في ما بعدُ.

أحضرَ الرُّومانُ حنطةً للأسرى. ورفضَ بعضُ اليهود الذين ما زالوا مُقَسِّين رِقابَهم ضدَّ الحُكمِ الرومانيِّ حصَّصَهم، في حركةٍ تمردٍ أخيرةٍ ومُيِّتة. وكان المرضى والضعفاء الذين حُرِّموا من الطَّعامِ هم من يُرثي لحالِهم؛ لأنَّ الرُّومانَ لمْ يُريدوا تبديدَ الحنطةِ على أولئك الذين لا يُرجَّحُ أنْ يبقوا على قيد الحياة بعد المسيرةِ المُقبلةِ إلى قيصرية. ولمَّا كانتْ هَدَسَةُ في عدادِ هؤلاء، فإنَّها لمْ تُعطَ أيَّ طعام.

ذاتَ صباح، أخذتْ هَدَسَةُ مع الآخرين إلى خارجِ أسوارِ المدينة. وحدقتْ برُعبٍ إلى

المنظر الذي تلقّاهما. فإن آلاف اليهود كانوا مصلوبين أمام أسوار القدس المنهارة، فيما طيور الحيف تستمتع بنهشهم. وكانت التربة تحت عدّة الحصار قد شربت كثيرًا من الدماء حتى صارت حمراء فاقعةً وصلبةً كالقريميد. أمّا الأرض ذاتها فكانت خارج نطاق أي شيء توقّعتَه هَدَسَة. فما عدا غابة الصلبان الواسعة الرهيبة، لم تكن هناك شجرة، ولا شجيرة، ولا حتى ورقة عشب. لقد ترامت أمامها أرض مُففرة، ومن ورائها المدينة العظيمة التي باتت ركامًا.

صاح حارسٌ: ”اصلوا التقدّم!“ وكِراجهُ يلوح في الهواء بقرب هَدَسَة ويُفزع على ظهر أحد الرّجال. وأنّ رجلٌ آخرُ أمامها أنينًا شديدًا ثمّ انهار. ولما سحب الحارس سيفه، حاولت امرأةٌ وقفه، ولكنه لم يلبث أن قبضته، ثمّ بضربة واحدة سريعة شقّ شريانًا في عنق الرّجل المنهار. فأمسك الرّجل المرتعش بذراعه، وجرّه إلى حافة مهوى الحصار ودفعه من فوق الجرف. فتدحرج الجسم على مهل إلى القعر، حيث استقرّ على الصّخور بين جُثثٍ أخرى. وساعد أسيرٌ آخر المرأة المنتحبة للوقوف على قدميها، ثمّ تابع الجميع تقدّمهم.

أفعدهم أسروهم حيث يرون ويسمعون ما يجري في معسكر تيطس. قال رجلٌ بمرارة: ”يبدو أننا لا بدّ أن نعانى مشاهدة حفلة انتصار رومانية“، وقد دلّت الأهداب الزرقاء المتدلّية من صدرته أنّه ينتمي إلى حزب الغيورين. فهمس أحدهم قائلاً له: ”أسكت، وإلا صرّت طعمًا للغربان مثل أولئك المساكين المجانين الآخرين!“

وأمام أنظار الأسرى، تشكّلت الفيالق وتقدّمت في وحداتٍ مُدرّبة باتقان قدام تيطس وهو متألّق بدرعه الذهبية. كان عددُ الأسرى أكثر من عدد الجنود، ولكنّ الرومان تحرّكوا مثل وحشٍ حربٍ هائلٍ واحد، في نظام وانضباط. وبالنسبة إلى هَدَسَة، كانت مشاهدة إيقاع خطو آلاف من الرّجال السائرين في تشكيلاتٍ كاملة أمرًا مروّعًا. فإنّ صوتًا واحدًا أو إشارة واحدة أمكن أن يجعل المئات يتحرّكون مثل شخصٍ واحد. كيف يتأتى لأيّ قوم أن يعتقدوا أنّهم قادرون على قهر أمثال هؤلاء؟ لقد سدّوا الأفق!

ألقى تيطس خطبة، متوقّفًا بين حينٍ وآخر، لدى هُتاف الجنود له.

ثمّ وُزعت المكافآت. وقد وقف الضباط قدام الرّجال، بَدروعهم المُنظّفة والبرّاقة تحت ضوء الشمس. وتلبّيت لوائح ثنوّه بالذين أنجزوا مآثرَ عظيمةً في الحرب. ووضع تيطس يديه أكاليل من ذهبٍ على رؤوسهم وحلّبيّ ذهبيّة حول أعناقهم. وأعطى بعضهم رِماحًا ذهبيّةً طويلةً وشاراتٍ فضيّةً. وكوفى كلُّ واحدٍ بشرفٍ ترفيعه إلى رتبة أعلى.

نظرت هَدَسَةً حَوَالَيْهَا إِلَى رُفَقَائِهَا، وَأَحْسَتْ ضَعْفِيَّتَهُم المِيرَةَ. فَإِنَّ اضْطِرَارَهُمْ إِلَى مَشَاهِدَةِ هَذَا الِاحْتِفَالِ ذَرَمِلِحًا عَلَى جِرَاحِهِم المِفْتُوحَةَ.

وَزُوعَتْ عَلَى الجُنُودِ أَكْدَاسٌ مِنَ الغَنَائِمِ. ثُمَّ تَكَلَّمَ تِطُّسٌ ثَانِيَةً، مُتَدَحِّحًا رِجَالَهُ وَمُتَمَنِّيًّا لَهُمْ حَظًّا طَيِّبًا وَسَعَادَةً غَامِرَةً. وَحَيَّاهُ الجُنُودُ مُتَهَلِّلِينَ بِهَتَّافَاتِهِم التَّايِيدِيَّةِ الفَّرِحَةِ، مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، إِذْ نَزَلَ وَاجْتَازَ بَيْنَهُمْ.

أَخِيرًا، أَصْدَرَ الأَمَرَ بِمُبَاشِرَةِ الوَلِيمَةِ. وَكَانَتْ أَعْدَادُ كَبِيرَةً مِنَ الثَّيْرَانِ مُسَكَّةً وَمُعَدَّةً عِنْدَ المَذَابِحِ المُخَصَّصَةِ لِأَلِهَةِ الرُّومَانِ. فَمَا إِنَّ أَصْدَرَ تِطُّسِ الأَمَرَ، حَتَّى نُحْرَتِ الثَّيْرَانِ قُرْبَانًا. وَكَانَ وَالدُّ هَدَسَةً قَدْ أَخْبَرَهَا بِأَنَّ شَرِيْعَةَ مُوسَى طَلَبَتْ سَفْكَ الدَّمِ كَفَّارَةً عَنِ الخَطِيئَةِ. وَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّ الكَهَنَةَ دَاخِلَ الهَيْكَلِ المُقَدَّسِ كَانُوا يُجْرُونَ الذَّبَائِحَ يَوْمِيًّا، تَذَكِيرًا دَائِمًا بِوُجُوبِ التَّوْبَةِ. غَيْرَ أَنَّ أَبَاهَا وَأُمُّهَا عَلَّمَاهَا مِنْذُ نَعُومَةِ أَطْفَارِهَا أَنَّ السَّيِّدَ المَسِيحَ قَدْ سَفَكَ دَمَهُ كَفَّارَةً عَنِ خَطِيئَةِ العَالَمِ، وَأَنَّ شَرِيْعَةَ مُوسَى قَدْ تَمَّتْ فِي السَّيِّدِ المَسِيحِ، وَأَنَّ لَهَا حَاجَةً بَعْدُ إِلَى الذَّبَائِحِ الحَيَوَانِيَّةِ. وَمَنْ ثُمَّ فِيهَا لَمْ تَرَقُ حَيَوَانَاتٍ تُقَدَّمُ ذَبَائِحَ. وَالأَنَّ شَاهَدَتْ بَارْتَعَابَ وَاشْمِئزازَ ذَبْحِ ثَوْرٍ بَعْدَ أُخْرَى قَرَابِينَ شُكْرٍ. وَأَمْرَضَهَا مَنظَرُ إِرَاقَةِ كَثِيرٍ مِنَ الدَّمِ عَلَى مَذَابِحٍ مِنْ حَجَرٍ. فَأَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا، وَأَشَاحَتْ بِوَجْهِهَا، وَأَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى فَمِهَا.

وَزُوعَتْ الثَّيْرَانِ المَذْبُوحَةَ عَلَى الجَيْشِ المُتَنَصِّرِ لِإِقَامَةِ وَليمةٍ عَظِيمَةٍ. وَحَمَلَ هَوَاءَ اللَّيْلِ رَائِحَةَ اللَّحْمِ المَشْوِيِّ المُعَذَّبَةِ إِلَى الأَسْرَى الجَائِعِينَ. وَكَانَ مِنْ شَأْنِ اليَهُودِ الأَتَقِيَاءِ أَنْ يَرْفُضُوا أَكَلَ ذَلِكَ اللَّحْمِ، حَتَّى لَوْ قُدِّمَ إِلَيْهِمْ. فَالْتَّرَابَ وَالمَوْتَ أَفْضَلَ مِنَ اللَّحْمِ المُقْرَبِ إِلَى أَلِهَةِ وَثَنِيَّةٍ. أَخِيرًا، جَاءَ الجُنُودُ وَأَمَرُوا الأَسْرَى بِالأَصْطِفَافِ لِأَخْذِ حِصَصِهِمْ مِنَ القَمَحِ وَالشَّعِيرِ. فَنَهَضَتْ هَدَسَةٌ بَضْعَفٍ، وَوَقَفَتْ فِي الصَّفِّ الطَوِيلِ، مُتَيَقِّنَةً بِأَنَّهَا سَتُحْرَمُ الطَّعَامَ أَيْضًا. وَقَدْ مَلَأَتْ الدَّمُوعَ عَيْنَيْهَا حَتَّى لَمْ تَعُدْ تَرَى جَيِّدًا. أِهْ، اللهُ، يَا اللهُ، أَفْعَلْ كَمَا تَشَاءُ! وَلَمَّا جَاءَ دَوْرُهَا، قَعَّرَتْ كَفَيْهَا، مُنْتَظِرَةً أَنْ تُدْفَعَ جَانِبًا. وَلَكِنْ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، تَدَفَّقَتْ الحُبُوبُ الذَّهَبِيَّةُ مِنَ المِعْرِفَةِ إِلَى رَاحَتِي يَدَيْهَا.

كَادَتْ تَسْمَعُ صَوْتَ أُمَّهَا: "الرَّبُّ يُدَبِّرُ". وَرَفَعَتْ رَأْسَهَا نَاطِرَةً فِي عَيْنِي الجُنْدِيِّ الشَّابِّ. كَانَ وَجْهُهُ، وَقَدْ لَوَّحَتْهُ شَمْسُ اليَهُودِيَّةِ، قَاسِيًا، خَالِيًا مِنْ أَيَّةِ عَاطِفَةٍ. "شُكْرًا!!" قَالَتْهَا بِاليُونَانِيَّةِ وَبِتَوَاضُعٍ بَسِيطٍ، وَلَيْسَ لَدَيْهَا أَدْنَى فِكْرَةٍ عَمَّنْ يَكُونُ الجُنْدِيُّ وَلَا عَمَّا كَانَ مُمَكِّنًا أَنْ يَفْعَلَ. فَتَرَجَّرَجَتْ عَيْنَاهُ. وَدَفَعَهَا أَحَدُهُمْ مِنْ وَرَاءِ دَفْعَةٍ قَوِيَّةٍ، لِأَعْنَأَ إِبَاهَا بِالأَرَامِيَّةِ.

وبينما هي تمشي مُبتعدةً، لم تدرِ أن العسكريَّ الشابَّ كان ما يزال يُراقبها. فإنه أقحمَ المعرفةَ في البرميلِ ثانيةً، وصبَّ الحنطةَ في راحتيِّ التالي في الصفِّ، من دون أن يُزيحَ عينيه عنها. قعدتْ هدسةٌ على مُنحدرِ التلِّ. كانت مُنفصلةً عن الآخرين، وحدها داخلَ ذاتها. وحينما حنَّت رأسها، أحكمتْ يديها على الحنطة. وغمرتْها العاطفة. ثمَّ همستْ بانكسارٍ: ”ترتّبْ قُدّامي مائدةً مُجاهةً مُضايقيّ“، وشرعتْ تبكي، مُضيفةً: ”أه، يا أبتِ، سامحني. أصلحْ طريقي. إنّما برّفتي، يا ربِّ، لئلاَّ تجعلني كلا شيءٍ. أنا خائفة. أيُّها الأب، أنا خائفةٌ جدًّا. احفظني بقوةِ ذراعِكَ“.

ثمَّ فتحتْ عينها، وفتحتْ يديها من جديد، قائلةً: ”الربُّ يُدبرُ“، وأكلتْ على مهلٍ، مُستمعةً بكلِّ حبةٍ.

لما غابتِ الشمس، شعرتْ هدسةٌ على نحوٍ غريبٍ بأنّها في سلام. حتّى بوجود كلِّ الخرابِ والموتِ حوالَيْها، وكلِّ المعاناة التي تنتظرُها، شعرتْ بقُربِ الله. ورفعتْ نظرَها إلى سماءِ الليلِ الصافية، فإذا النجومُ مُتلاثلة. وهبَّ نسيمٌ لطيف، فذكرَها ببلدتها الجليل.

كان الليلُ دافئاً... وهي قد أكلتْ... إنّها ستعيش. لقد قالَ لها مرقسُ مرّةً: ”اللهُ دائماً يُبقي بقيّةً“. بينَ أفرادِ عائلتها جميعاً، كان إيمانُها هو الأضعف، وروحُها هي الأكثرَ تشكيكاً والأقلَّ جرأةً. وبينهم جميعاً، كانت هي الأقلُّ استحقاقاً. فسألَتْ وهي تبكي بهدوءٍ: ”لماذا أنا، يا ربِّ؟ لماذا أنا؟“

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers